الفصل السابع

ما هي ردود الأفعال الفطرية ؟

أولا وقبل كل شيء الخوف .

فالخوف من العقاب كان دائما سلاح المعلم ، وسيظل دائما بالطبع يحتفظ بمكان ما في ظروف وأحوال قاعة الدرس .

ويبدو أن الموضوع مألوف جدا لدرجة أننا لا نحتاج الى المزيد عليه .

وينسحب المبدأ نفسه على الحب والرغبة الغريزية في أن ندخل السرور على من نحب .

فالمعلمة التي تنجح في أن يحبها طلابها وطالباتها تحصل على نتائج يستحيل على غيرها من ذوات المزاج الصارم أن تحصل عليها .

ثم يأتي بعد ذلك حب الاستطلاع فهو موضوع يستحق منا كلمة .

والواقع أن حب الاستطلاع تعبير ضعيف غير كاف للدلالة على الباعث أو الحافز نحو معرفة أفضل في أقصى مراميها وأوفر درجاتها ؛ ولكنكم ستفهمون ما أقصد بلا عناء .

ان المستحدثات ذوات الجدة والندرة في الأشياء المحسوسة المعقولة — خصوصا اذا اتصفت بالطرافة أو البريق اللامع أو التأثير البراق — تجذب انتباه الناشئة وتقيد أبصارهم في كل الحالات . ويستمر هذا الانجذاب حتى تخمد الرغبة في المزيد من المعرفة عن الشيء أو الموضوع .

وفى شكلها العقلى على المنسوب العالى فان الحافز على استكمال المعرفة يتخذ صفة حب الاستطلاع العلمى أو الفلسفى .

وفى كلا شكليها الحسى والفكرى فان الغريزة تكون أكثر تناوبا واستنادا الى الغير فى الطفولة منها فى مراحل الحياة التى تليها .

إن الأطفال الصغار يستثار حب استطلاعهم حيال كل مؤثر أو انطباع جديد يفاجئهم أو يدهمهم .

إنه من المستحيل على طفل صغير أن ينصت الى محاضرة لمدة أكثر من بضع دقائق كما تنصتون أنتم لى الآن ؛ ذلك أن المناظر والأصوات الخارجية ستحمل انتباهه بعيدا عن هنا على نحو لا يمكنه تلافيه .

ومعظم الناس من القوم الوسط فى الحياة يستحيل عليهم بذل المجهود الفكرى الذى نطالب به طالب المدرسة العادى — لكى يتقن درس اللاتينى أو اليونانى أو يتفهم درس الجبر أو الطبيعة .

إن المواطن الذى اجتاز سن الأربعين لا يعنيه شىء سوى أداء التفاصيل الروتينية لعمله ، أما الحقائق الجديدة وبخاصة التى تتطلب وتتضمن تدريبا وثيقا من إمعان الفكر فهذه لم تعد فى نطاق مقدوره .

إن حب الاستطلاع المثير فى مرحلة الطفولة ينجذب بصفة خاصة ويستثار بوساطة أنواع محددة معينة من الأشياء أو الموضوعات .

فالأشياء المادية والأشياء التى تتحرك والكائنات الحية والأعمال الانسانية والقصص المتعلقة بالأعمال الانسانية تجذب الانتباه أكثر بكثير من أى شىء آخر مجرد .

هنا نلمس ثانيا فائدة دراسة الأشياء وطرق التدريب اليدوى والأشغال اليدوية .

إن انتباه الطالب ينجذب تلقائيا حيال أية مشكلة أو مسألة تتضمن عرضا لمادة جديدة أو لنشاط يقوم به الغير .

لذلك ينبغى أن يلجأ المعلم فى مراحل التعليم المبكرة الى جذب انتباه الطفل بعرض الأشياء وبالتمثيل والوصف ؛ لأن حب الاستطلاع النظرى — استطلاع العلاقات المنطقية بين الأشياء لا يستيقظ فى الطفل قبل مرحلة المراهقة .

أما أسئلة الأطفال المتفرقة عن الغيبيات والميتافيزيقات ، ومن الذى خلق الله ، ولماذا تكون فى كل يد خمس أصابع ، فهذه كلها أسئلة لا تدخل فى حسابنا هنا .

ولكن بمجرد أن تستيقظ الغريزة الفطرية فى الطالب فان نظاما جديدا من العلاقات البيداجوجية يبدأ فيه . فالأسباب والمسببات والمفاهيم المجردة تنبثق فجأة الى أقصى درجات الشهية ، وهذه حقيقة مألوفة لدى كل المعلمين .

ويمكننا إثارة حب الاستطلاع الحيادى فى شتَّى تطوره المعقول والمتعقل — لدى الطفل — ونحن أكثر يقينا من ذلك عما لوجربنا المحاولة نفسها مع الكبير حيث وصلت هذه الغريزة الفكرية عادة الى درجة من السبات الذى لا يمكن إيقاظه الا اذا كان مرتبطا بمصلحة شخصية أنانية .

وسأعود للكلام عن هذه النقطة الأخيرة عما قريب .

التقليد والمحاكاة

تميز الانسان وتفوق على سائر الكائنات فى مراحل تطوره المختلفة بأنه الحيوان المقلد بلا منازع .

ولا يوجد كتاب فى علم النفس — مهما يكن قديما — لم يخصص فقرة على الأقل لهذه الحقيقة . ومع ذلك فمن العجب أن المجال الكلى

والامكانيات المحمل بها الباعث التقليدى لدى الانسان — قضى عليها أن تنتظر وقتا طال أمده ولم تلق التقدير الكافى الا منذ الاثنتى عشرة السنة المنصرمة ، وكان أول رائد لهذا الميدان العالم الفرنسى تارد Tarde الذى مهد الطريق فى كتابه الرائع البارع المبتكر :

قوانين المحاكاة "Les lois de limitation"

وفى وطننا هذا « أمريكا » ظل الأستاذان رويس Royce ، بولدوين Baldwin يدحرجان كرة البحث فى هذا الموضوع بكل ما فيهما من نشاط وطاقة .

إن كل واحد منا قد صار الشخصية الفريدة الفذة التى هو عليها بفضل عملية المحاكاة والتقليد .

فنحن نعى بأنفسنا كذوات فريدة — عن طريق محاكاة الآخرين — فالوعى بالآخرين سابق على ذلك ، والشعور بالذات ينمو من الشعور بالنمط .

إن ثروة البشرية برمتها — التى تراكمت طوال العصور بلغاتها وفنونها ومؤسساتها ونظمها وعلومها — تنتقل من جيل لآخر عن طريق ما أسماه بلدوين Baldwin بالوراثة الاجتماعية ، فكل جيل يقلد الجيل الذى سبقه . وليس عندى متسع من الوقت لكى أتناول بالتفصيل هذا الموضوع الجذاب من موضوعات علم النفس . اننا بمجرد سماعنا لفكرة تارد Tarde فاننا نشعر الى حد ما أنها صحيحة .

فالاختراع والمحاكاة هما الساقان اللتان مشى بهما الجنس البشرى منذ كان له وجود حتى وقتنا الحاضر .

بيد أن التقليد يندس متخفيا — دون أن نحس به — الى عملية مباراة .

والمباراة هى الدافع أو الباعث وراء تقليدك لما ترى غيرك يفعله لكيلا تبدو أقل منه قدرة أو أداء .

ومن الصعب أن نفصل فصلا حادا بين مظاهر الباعثين،لأن نتائجهما تختلطان وتتشابكان وتندمجان على نحو يتعذر علينا فيه عزلهما على وجه التحـديد .

ان المباراة هى عصب المجتمع الانسانى .

لماذا تجلسون هنا أمامى وتنصتون الىّ ؟

لو لم يكن هناك شخص قال لكم إنه حضر دراسة صيفية فى إحـدى المدارس ، أو درس فى أحد معاهد المعلمين ؛ هل كان يخطر ببال واحد منكم أن يفعل شيئا لا مثيل له ولا ضريب ولم يسمع به من قبل ؟

أغلب الظن ... لا .

ثم طلابكم الذين يأتون الى مدارسكم ليتعلموا هل كانوا يذهبون اليكم لولا أنهم رأوا أطفال جيرانهم يذهبون الى المدرسة فى الوقت نفسه ؟

اننا لا نبتغى الوحدة أو الغرابة أو الشذوذ ، ولا نريد أن نقطع أنفسنا من تيار المشاركة فى الأشياء التى تبدو لجيراننا ميزات مرغوبا فيها .

أما فى قاعة الدرس فان المحاكاة والمباراة تلعبان دورين بالغى الأهمية والحيوية .

وكل معلم يعرف ميزة اشتراك مجموعات بأكملها من الأطفال فى أداء بعض الأعمال فى وقت واحد .

والمعلم الذى يلاقى أكبر قسط من النجاح هو المعلم الذى تصبح طرقه الخاصة قابلة للتقليد وممكنة المحاكاة الى أقصى درجة . وينبغى للمعلم

أو المعلمة ألا يحاول أن يطلب من طلابه أن يفعلوا شيئا لا يقدر هو على أدائه .

« دعنى أُرِك كيف .... » .

تعتبر باعثا أفضل وأجدى فى العمل والأداء بلا منازع .. من :

« اذهب وأدها طبقا لتعليمات الكتاب » .

ان المعلم ذا المهارة يبهر الأطفال ويحوز إعجابهم ؛ فالشىء الذى يعمله يبدو سهلا تيسره له مهارته فيحاول الأطفال المباراة .

ولا فائدة ترجى من معلم هامد خامد مجدب بليد يحث تلاميذه على النشاط واليقظة والاهتمام .

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

على المعلم أن يكون مشغوفا ومهتما ، وبذلك يضرب المثل العملى لطلابه ، وهو مثل أكثر أثرا ونفاذا من كل المواعظ والمثيرات المصطنعة .

ولكل مدرسة نغمها الخلقى والفكرى ، هذا النغم هو حصيلة تقاليد دعمتها المحاكاة وصانها التقليد الموصول جيلا وراء الآخر ، ومرد ذلك أولا وقبل كل شىء الى سلوك المعلمين الذين ينتهجون منهاجا معينا فيصبح مثالا يحتذى وينسج على منواله . ثم هناك أيضا الطلاب ذوو الشخصيات الفذة القوية الذين يقلدهم غيرهم ، ثم تنتقل التقاليد على السنين عاما وراء الآخر — بحيث يندغم الطالب الجديد فى هذه التقاليد الراسية ويلتحم فى مقوماتها مباشرة بلا نصب ولا عِوج ولا أَمت .

مثل هذا النغم يتغير ببطء جدا — اذا قدر له أن يتغير — بتأثير تعديلات تطرأ على يد شخصيات جديدة لها من القوة والقدرة والكفاية ما يمكنها من إرساء أنماط جديدة ، لا مجرد محاكاة القديم ونسخه .

ولعل أروع مثل نضربه لهذا النوع من النغم هو ما حدث فى رجبى Rugby تحت إدارة الدكتور آرنولد Arnold . فقد كان خلقه مثالا يحتذى ونموذجا بهر به الطلاب الكبار فى المدرسة — الذين بدورهم أرادوا أن يكونوا موضع إعجاب وتقليد من يصغرونهم . لقد توقعوا ذلك وطالبوا بذلك فكان لهم ما أرادوا وكان لهم ما أريد لهم .

ولقد بلغت « عدوى » عبقرية آرنولد حدا جعل من السهل تعرف أخلاق خريج رجبى طوال حياته ، بلازمة من لوازم الشخصية التى اكتسب خصائصها فى المدرسة .

ومن الواضح أن مثل هذه السيكولوچية لا تستطيع أن تمدنا بسنن تفصيلية فى هذا المجال.وهكذا الأمر بالقياس الى مجالات أخرى كثيرة من مجالات التعليم — فان النجاح يتوقف أساسا على العبقرية الفطرية للمعلم وعلى ما تزخر به نفسه من ود وتعاطف وكياسة وإدراك وبصيرة تمكنه من أن يهتبل الفرصة المناسبة والوقت الملائم لكى يضرب المثل السوى .

ومن بين الاصلاحات الحديثة — التى نودى بها أخيرا فى طرق التعليم — نسمع صوتا خاصا يعيب المباراة ويحقر شأنها ويعدد مثالبها كباعث من بواعث العمل ، أو نبع من منابع النشاط فى قاعة الدرس .

ومنذ أكثر من قرن من الزمان دمغ روسو Rousseau فى كتابه اميل Emile المنافسة والمباراة بين طالب آخر بأنها باعث انفعالى أحقر من أن يؤدى دورا فى تربية مثالية ، وأن المباراة شهوة دنيئة . « فلا تدعوا اميل أبدا يضطر الى أن يقارن نفسه بغيره من الأطفال — لا داعى للمنافسة ولا للمسابقات — حتى فى الجرى — بمجرد أن يبدأ فى أن تكون عنده القدرة على التفكير » .

« فمن الأفضل ألا يتعلم مطلقا ما لا يستطيع أن يتعلمه الا عن طريق الحقد والغرور . فلنرصد مدى تقدمه كل عام ونقارنه بما أحرزه من تقدم فى السنوات التالية ثم نقول له :

« لقد بلغ نموك عدد كذا من البوصات فأصبحت أطول . انظر الى الحفرة التى استطعت أن تقفزها ، والى الأثقال التى استطعت أن ترفعها والى البعد الذى تقدر على أن تقذف اليه بحصاة ، والى المسافة التى تستطيع أن تجريها دون أن تلهث أو تتقطع أنفاسك . انك قادر على أن تفعل كل ذلك ، وستقدر على أن تحرز أكثر من ذلك الآن » .

« بهذه الطريقة أستطيع أن أثير حماسته دون أن نجعله يغار من أى أحد، وبذلك يبتغى أن يتفوق على نفسه وأن يبز نفسه ، ولست أرى ضيرا فى هذه المباراة بين ذاته الآن وبين ذاته فى الماضى — بين نفسه اللاحقة ونفسه السابقة » .

وبلا جدال — هذا النوع من المباراة بين النفس الحاضرة والنفس السابقة هو نوع نبيل من انفعالات المنافسة ، وله مجال واسع فى تدريب وتربية الناشئة . ولكن قمع وتحريم ونبذ ومعارضة كل منافسة ممكنة بين ناشىء وغيره ، بدعوى أن مثل تلك المنافسة قد تنحط الى نوع من الشره والطمع والشهوة والأنانية المتطرفة البالغة الشطط — يبدو مشوبا بانفعال عاطفى لا يخلو من تعصب لا مسوغ لهما .

ان الشعور بالتنافس رابض فى قاع ونخاع وجودنا ذاته ، ويرجع الفضل فى كل تحسن اجتماعى — لحد كبير — الى هذا الشعور .

وثمة نوع نبيل ومسماح من المنافسة ، يقابله نوع زاخر بالضغينة والحقد والطمع .

بيد أن النوع النبيل المسماح من المنافسة هو الذى يسود فى الطفولة بوجه خاص .

فكل الألعاب تدين بما يشوبها من حماسة وما يصاحبها من فتوة الى حقيقة كونها ترتكز أساسا على انفعال شديد قوى للمباراة ، ومع ذلك فهى الوسائل الأساسية الرئيسية لتدريب الناشئة على العدل والتسامح والقسط .

فهل يقذف المعلم بمثل هذا الحليف بعيدا ؟

هل نحن نأمل جديا فى أن نلغى الى الأبد الدرجات وشارات الامتياز والتفوق والمكافآت وبقية حوافز الجهد القائمة على نشدان التفوق المعترف به ؟

اننى — كعالم نفسى يتعين علىّ ملاحظة عمق وتغلغل الاحساس بالمباراة فى النفس — أعترف بالشك فى قدرتنا على الاستغناء عن هذا الحليف ، وتساورنى الريب فى إلغاء ما اصطنعناه فى ميدان المباراة من وسائل وغايات .

بيد أن المعلم الحصيف هو الذى يفيد من هذه الغريزة ويستعملها ، كما يفيد ويستعمل غيرها من الغرائز فيجنى ثمارها ويلجأ اليها بطريقة تمكنه من أن يحصد منها الحد الأعلى من المزايا والحد الأدنى من الضرر . اذ لا مفر من أن نعترف بما يقوله أحد نقاد مذهب روسو من أن أعمق البواعث على العمل فينا تنبثق من منظر العمل فى غيرنا .

إن مشهد الجهد هو الذى يوقظ ويصون ويساند مجهودنا نحن . ان الشخص الذى يجرى شوطا وحده فى حلبة السباق لن يجد فى ارادته وعزيمته قوة التنبيه والاثارة والتحريض التى تحركها فيه منافسته مع

غيره من المتسابقين فى الجرى عندما يشعر باقترابهم الشديد منه وهم على وشك تجاوزه .

وعندما نريد من حصان مخبّ أن يسارع فاننا نوكل حصانا يجرى بملازمته ومحاذاته لكى يلائم خطوه لرفيقه .

وكما أن المحاكاة أو التقليد يفضى الى المباراة ويسعى منسابا الى التنافس فان المباراة بدورها تفضى الى الطموح ، والطموح يربط نفسه ربطا وثيقا بالكبرياء وحب المنازعة .

وبناء على ذلك فان هذه الاتجاهات الغريزية الخمسة تشكل مجموعة من العوامل متداخلة متشابكة يصعب فصل أو عزل بعضها عن البعض الآخر — فى تقرير جزء كبير من مسلكنا .

ولعل أفضل تسمية لهذه المجموعة برمتها هو أن نطلق عليها الدوافع الطامحة .

بيد أن الكبرياء وحب المنازعة هما فى الغالب غير جديرين بالاثارة فى الناشئة . ولكنهما فى أشكالهما المهذبة الرقيقة ، وأنماطهما النبيلة الراقية ، يؤديان دورا عظيما فى قاعة الدرس وفى التربية عموما لكونهما من أقوى بواعث الحث على المجهود فى بعض الشخصيات .

على أننا لا ينبغى أن نعد حب المنازعة مقترنا دائما بالاقتتال الجسمانى ، أو صنوا للاحتراب البدنى . فقد يكون حب المنازعة دليلا على الاباء والشمم وعدم التسليم بالهزيمة فى مواجهة أية صعوبة .

انها تبعث فينا صمودا يمكننا من انجاز الأعمال الحماسية بحمية ، بل ويحثنا على الترحيب بها . وهى صفة لازمة للشخصية المبادرة الحمية الأبية الذكية .

لقد قرعت آذاننا أخيرا تلك الفلسفة الرامية الى الرقة والليونة والطراوة فى التربية التى تشترط المواظبة والمثابرة على إثارة الشغف فى كل شىء وإزاحة كل صعوبة من طريق المتعلم بحيث يقطعه كما تقطع السكين الزبد .

لقد حلت البيداجوچيات الهينة اللينة محل الطرائق الوعرة الشاقة فى التعليم .

ومن الهراء أن نفترض أن كل خطوة فى التربية لابد وأن تكون لذيذة سائغة .

إذ لابد من إثارة باعث الكفاح فى المتعلم . اجعل تلميذك يحس بالعار من خوفه من حل مسائل الكسور ، أو هلعه من أن يسحقه قانون الأجسام الساقطة . أيقظ فيه حب المنازعة ، والكبرياء فيهرع الى المناطق الصعبة مدفوعا بنوع من الحفيظة الباطنية والثورة على نفسه التى هى من أحسن ما فيه من مؤهلات أخلاقية .

إن النصر الذى يحرزه فى هذه الأحوال يصبح نقطة تحول « وآزمة » لشخصيته .

لأنه يمثل علامة المنسوب العالى لقوته ، ويفيده بعد ذلك كنموذج مثالى يحتذيه فى تقليد نفسه ومحاكاة ذاته .

إن المعلم الذى لا يوقظ هذا النوع من الإثارة والتحدى وحب المنازعة فى طلابه يخفق فى أعظم مهامه ويقصر تقصيرا فاحشا فى أعظم الرسالات الموكولة اليه ، وفى تحقيق الفائدة المرجوة منه .

أما الغريزة التالية التى سأذكرها فهى :

غريزة التملك التى هى من احدى المواهب والمهور الجوهرية للجنس البشرى .

وهى غالبا ما تخاصم التقليد وتقاومه . وسواء أكان التقدم الاجتماعى راجعا الى ابتغاء المحافظة على الأشياء والعادات القديمة أكثر مما هو راجع الى نزعة التقليد واكتساب الجديد — فهذا أمر يصعب تحديده وتقريره فى بعض الحالات .

إن الشعور بالتملك يبدأ فى السنة الثانية من الحياة ، فمن أولى الكلمات التى يتعلم الطفل نطقها نجد كلمة « لى » والويل لآباء التوائم الذين لا يحضرون معهم الهدايا أو اللعب مثنى مثنى من كل لعبة اثنتين ومن كل هدية زوجين .

إن عمق وفطرية هذه الغريزة يلقيان ظلالا من الاخلال بالنفس الانسانية وبعلم النفس يعترض طريق كل الأنواع والأنماط والأشكال الجوهرية الأساسية للعوالم المثالية الشيوعية .

إن الملكية الخاصة لا يمكن محوها الا اذا تغيرت الطبيعة الانسانية .

ومن المحتم للصحة العقلية للفرد أن يكون لديه شىء أكثر من الملابس التى تستره التى تعد ملكيتها وقفا عليه وحده ، والتى يدافع عن ملكيتها ضد العالم كله .

وحتى النظم الدينية التى تشدد النذر على معتنقيها فيزهدون فى الدنيا ويقنعون بالكفاف والفقر والمسغبة اضطرت الى أن ترخى قبضتها هونا ما لكيلا تشقى قلوب معتنقيها بالتزامات تجعلهم صفر اليدين .

إن الناسك فى صومعته لابد وأن تكون له كتبه التى يحرص على اقتنائها . والراهبة لابد وأن تكون لها حديقتها التى تتعهدها وأن تحتوى غرفتها على ما تعتز به من صوَر ورسوم .

فغريزة التملك فى التربية غريزة أساسية جوهرية ويمكن الافادة منها وتثميرها بطرق عديدة .

ففى البيت—مثلاً— يبدأ تدريب الطفل على النظام والنظافة والأناقة بترتيب ممتلكات الطفل الخاصة .

وفى المدرسة تعد الملكية هامة بنوع خاص لارتباطها بشكل معين من أشكال النشاط ، ألا وهو دافع التجميع .

وقد يكون هناك شيء — لا أهمية له فى حد ذاته كصدفة أو محارة — أو طابع بريد أو خريطة — ولكنها تصبح هامة اذا ما سدت فراغا فاكتملت بها مجموعة ناقصة أو سلسلة تفتقر اليها .

ولعل كثيرا من أعمال البحث العلمى والتأليف — وخصوصا اذا اقتصر على الفهرسة ، وتبويب المراجع أو التذكر أو الاجترار العلمى (وهذا هو العنصر الذى ترتكز عليه كل البحوث العلمية) ، يرجع الاهتمام بها الى الطريقة التى تشبع بها غريزة التجميع والمزيد أكثر مما يرجع الى أى شغف أو اهتمام خاص يحدونا الى الفهم بالمنطق العقلى .

فالباحث يبتغى الحصول على مجموعة كاملة من المعلومات ، وهو تواق الى أن يعرف عن موضوع ما أكثر مما يعرفه أى شخص آخر بالطريقة نفسها التى يبتغى بها جامع المال أن يبذ أقرانه بتكاثر أمواله .

وكذلك الأمر بالقياس الى من يسارع الى الحصول على النسخة الأولى من أول طبعة لكتاب قبل أن يحرزها غيره ، أو من يتزيد من نقوش أو ألقاب كثيرة تتصدر الحرف الأول من اسمه أكثر من أى شخص آخر .

إن المعلم الذى يدمج هذا الدافع فى مناشط المدرسة معلم ذو حظ عظيم ، فكل الأطفال تقريبا يجمعون شيئا ما ويحرصون على المزيد منه .

والمعلم الحصيف هو الذى ينمى فيهم عادة الالتذاذ بجمع الكتب ويغرس فيهم حب جمع المذكرات العلمية الأنيقة المنظمة فى بادىء الأمر

حتى اذا بلغوا أشدهم ونضجوا أتقنوا عمل بطاقات مفهرسة وحرصوا على الاحتفاظ بكل الرسوم والخرائط التى عملوها .

فالأناقة والنظام والرشاقة والأسلوب كلها صفات تكتسب غريزيا مع المزايا الأخرى التى تجلبها ملكية الأشياء المجمعة .

حتى الأشياء المضنية الكريهة — مثل مجموعة من طوابع البريد — تستطيع المعلمة استغلالها كحافز على الاهتمام بالمعلومات الجغرافية والتاريخية التى تريد نقلها لطلابها وتزويدهم بها .

ولقد استغل النظام السويدى المعروف بنظام سلويد Sloyd ، هذه الغريزة بأن جعل الطلاب يصنعون مجموعة من الأدوات والعدد الخشبية لاستعمالهم الخاص فى بيوتهم .

فالتجميع طبعا هو أساس كل دراسة فى التاريخ الطبيعى ولا يوجد شخص استطاع أن يصبح عالما طبيعيا الا اذا كان جامعا نشطا فى طفولته وامتاز بهذه الصفة التجمعية وهو صغير امتيازا ملحوظا غير عادى .

وثمة غريزة أخرى هى غريزة البنائية ، وقوامها ميل غريزى فى غاية الأهمية يتعين على قاعة الدرس أن تعقد معه محالفة .

فحتى السنة الثامنة أو التاسعة من سنى الطفولة لا يفعل الطفل شيئا أكثر من الإمساك بالأشياء واستكشافها بيديه وحلها وتركيبها وإقامتها وتفكيكها أو تحطيمها أو تفتيتها الى أجزاء متناثرة .

ومن الوجهة السيكولوجية يعتبر البناء والهدم اسمين داليين على ظاهرة النشاط اليدوى نفسها .

فكلاهما يعنى احداث تغيير تترتب عليه نتائج ظاهرة تبدو للعيان ؛

وحصيلة ذلك كله هى التعرف الوثيق بالبيئة المادية والالمام التام بخصائص ومواصفات الأشياء وهى الأساس الحقيقى للوعى الانسانى .

وعند معظمنا فان ادراكنا ومفاهيمنا للأشياء وخصائصها يتحدد آخر الأمر بفكرتنا عما نستطيع أن نفعله بهذه الأشياء أو نعمله بها .

فالعصا تعنى أداة نتوكأ عليها أو نضرب بها أو نهش بها، والنار تعنى شيئا يمكننا من طهو الطعام ومن التدفئة أو حرق الأشياء . والخيط يعنى شيئا نستطيع به أن نربط شيئين معا به أو نخيط به ثوبا أو جرحا .

وعند معظم الناس لا تحمل هذه الأشياء اليهم معانى أكثر من ذلك .

وفى الهندسة فان تعريف الأسطوانة أو الدائرة أو القطر هو ما تحصل عليه عن طريق أداء عمليات خاصة من البناء والانشاء والرسم بعمل مربع مستطيل على أحد جوانبها الخ الخ .

وكلما تعرف الطفل أنواعا مختلفة من الأشياء عن طريق حواسه ، زادت حاسته وثقته وشعوره الوثيق باندماجه فى العالم الذى يعيش فيه .

إن فينا معشر الكبار — الذين لا يتجاوبون مع الأطفال ولا يفهمونهم — من يتعجب من الساعات الطويلة الشهية اللذيذة التى يقضيها طفل فى تركيب مكعباته الخشبية ثم إعادة تركيبها .

ولكن التربية الحصيفة تمشى مع التيار وتواكب المد بدلا من أن تعانده وتقاومه . لذلك تكرس السنين الأولى من مرحلة الرياض فما فوق فى تدريب الأطفال على التركيب والبناء وعلى دراسة الأشياء .

ولا حاجة بى هنا الى أن أعيد على مسامعكم ثانيا ما قلته من قبل خاصا بأفضلية الطرق التجريبية والموضوعية . فهى تشغل الطالب بطريقة مناسبة جدا للاهتمامات التلقائية الموافقة لعمره .

وهى لا تمتص نشاطه فحسب وتثير شغفه واهتمامه فيقبل عليها بكليته وينغرس فيها،ولكنها تترك فيه انطباعات عميقة وآثارا باقية مستمرة .

فاذا قارنا الناشئة الذين تربوا بهذه الطرق بغيرهم ممن تربوا على الكتب فقط ـ نجد أن النوع الأخير يحمل فى طياته صفة تلازمه طوال حياته وهى مجافاة الحياة والابتعاد عن تيارها وإحساسا موصولا بالتوجس فيها ، وكراهية الخوض فى غمارها مما يترتب عليه غالبا إحساسه بنوع من الالتياث (الملانخوليا) الذى كان من الممكن تلافيه لو أن تربيته قامت على أساس واقعى حقيقى .

على أن هناك دوافع أخرى مثل حب الاستحسان أو العُجْب أو الخجل أو السرية تستحق أن تتناولها بكلمة ولكنها مألوفة لنا جميعا بحيث لا حاجة بنا الى ذلك . ويمكنكم متابعة الموضـــوع بسهولة بتفكيركم وتأملكم الخاص .

ويتبقى لدينا قانون عام واحد يرتبط بكثير من ميولنا الغريزية وله أهمية ليست بالقليلة فى التربية ، ولذلك يتعين على أن أشير اليه بايجاز وأعالجه باختصار قبل أن أترك هذا الموضوع .

هذا القانون سمى بقانون وقتية الغرائز وقابليتها للزوال .

فكثير من ميولنا القهرية واتجاهاتنا الدافعية تنضج فى مرحلة معينة ، فاذا ما توافرت لها الظروف المواتية والأشياء الملائمة إبان نضجها — تم تحصيل عادات السلوك حيالها بحيث تظل باقية .

ولكن اذا لم تتوافر لها تلك الظروف المواتية والأشياء الملائمة فقد يموت الباعث أو ينقرض الدافع قبل أن تتكون العادة وقد يصعب بعد ذلك تعليم الكائن الحى التصرف الملائم أو رد الفعل المناسب فى هذه الاتجاهات .

فغرائز مص الثدى (الرضاع) فى الحيوانات الثديية ، وغريزة التبعية فى بعض الطيور وذوات الأربع ، كلها تزودنا بأمثلة على ذلك ؛ لأن هـذه الغرائز تزول أو تتلاشى بعد الميلاد بفترة قصيرة . ونلاحظ فى الأطفال نضجا للدوافع والاهتمامات فى نظام رتيب محدد .

فالزحف ، والمشى ، والتسلق ، وتقليد الأصوات ، والتركيب ، والبناء ، والرسم ، والعد ، كلها تتناوب على الطفل فى تتابع وفى بعض الأطفال نجد أن بعض الدوافع والاهتمامات ابان نضجها وطوال مدة بقائها تتميز بما يقارب الهوس الانفعالى الفريد فى بابه .

وقد يتلاشى كليا الاهتمام بأى هذه الأشياء فيما بعد .

وطبعًا — اللحظة البيداجوجية المناسبة لكى نعين الطفل على اتقان مهارة أو تثبت فيه عادة نافعة — هى اللحظة التى ينبثق فيها الدافع الفطرى انبثاقا حادا .

وينسحب هذا على ألعاب القوى ، كما ينسحب على الحساب ، أو حفظ الشعر ، أو الرسم ، أو علم النبات ، أو غيرها وغيرها .

اتهز الفرصة المناسبة واللحظة الحاسمة والساعة المواتية، فاذا المادة التى بينها وبين الطفل عداوة كأنها ولى حميم !

بيد أن الفرصة المناسبة أو الساعة المناسبة قد لا يطول أمدها ، فحذار من أن تدعها تفلت من يدك ما دامت قائمة ، واجعلها نصب عينيك جاعلا كل مشاغل الطفل الأخرى فى المحل الثانى .

بهذه الطريقة تقتصد فى الوقت بتثمير امكانيات الطفل فى قمة تأهبها فتعمق مهارته وإتقانه . فكثير من آيات الاعجاز عند الأطفال سواء أكانت فنية أم حسابية لا تطول فترة ازدهارها سوى بضعة أشهر .

ولكنا لا نستطيع أن نستخلص قواعد خاصة من كل ذلك . فالأمر متوقف على الملاحظة الدقيقة والمراقبة الوثيقة فى كل حالة على حدة .

وللآباء هنا ميزة فى اهتبال الفرصة تفوق المعلمين .

والواقع أن قانون وقتية الغرائز وقابلية الدوافع للزوال لا مجال له فى التطبيق الفردى فى المدارس — الا النزر اليسير .

هذا هو الكائن النفسى الصغير ذو الاهتمامات والدوافع الذى يتعين على المعلم أن يقدس بواعث نشاطه ومصادر سلوكه ، والذى ينبغى له أن يألف طرائقه ويعتاد أساليبه .

ونقطة البداية هى ميول الطفل الفطرية — هذه هى النقطة التى يتحتم على المعلم أن يبدأ منها ثم يوسع بعد ذلك خبرة الطفل برمتها — السلبية والايجابية .

وعليه أن يشغله بأشياء ومحفزات جديدة ويجعله يتذوق نتائج سلوكه حتى يكون المحتوى الكلى للخبرة التى يتذكرها الطفل هو الذى يقرر سلوكه عند اثارة الحافز — وليس مجرد الانطباع المباشر أو الأثر المجرد المباشر .

وباتساع حياة الطفل وغزارة ودسامة مجالاته فانها تزخر بالمزيد من الذكريات والمشاركات والارتباطات والبديلات . ولكن العين اللاقطة التى اعتادت التحليل النفسى تستطيع أن تتبين فى ثناياها وطواياها الخطوط الرئيسية والاطار الرئيسى لخطتنا النفسية البسيطة .

وقروا إذن — بالله عليكم — دائما ردود الفعال الأصلية حتى فى حالة محاولتكم للتغلب على ارتباطها بأشياء معينة واستبدالها بغيرها مما تريدون احلاله محلها ليتخذها الطفل قاعدة لسلوكه .

إن السلوك السيىء — من وجهة نظر فن المعلم — هو نقطة بداية طيبة مثله فى ذلك تماما كالسلوك الطيب .

بل وفى الحقيقة — وعلى الرغم مما يبدو فى ظاهره من تناقض — فان السلوك السيء غالبا ما يكون نقطة بداية أفضل من السلوك الطيب أو الجيد .

علينا أن نجعل ردود الأفعال المكتسبة تتأصل كعادات كلما كان ذلك مناسبا ومواتيا .

لهذا سيكون موضوع العادة هو موضوعنا التالى الذى سيظفر باهتمامكم .